الكلمة . من يعرف «كلمة السر» يمكنه أن يدخل . وكل كلمة سر لها معنى عند واضعها ، وقد يكون ثمنها الحياة عند من يقترب من معسكر الجيش ولا يعرفها .

﴿ الٓمٓصٓ ① ﴾ [ سورة الأعراف ]

ونجد بعد هذه الحروف المقطعة حديثاً عن الكتاب ، فيقول سبحانه :

﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ② ﴾

وساعة تسمع «أنزل» فافهم أنه جاء من جهة العلو أى أن التشريع من أعلى . وقال بعض العلماء : وهل يوجد فى صدر رسول الله حرج ؟ . لننتبه أنه ساعة يأتى أمر من ربنا ويوضح فيه ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ ﴾ ، فالنهى ليس لرسول الله (ﷺ) وإنما النهى للحرج أو الضيق أن يدخل لرسول الله ، وكأنه سبحانه يقول : يا حرج لا تنزل قلب محمد .

لكن بعض العلماء قال : لقد جاء الحق بقوله سبحانه : ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ ﴾ ؛ لأن الحق يعلم أن محمداً قد يضيق صدره ببشريته ، ويحزن ؛ لأنهم يقولون عليه ساحر ، وكذاب ، ومجنون . وإذا ما جاء خصمك وقال فيك أوصافاً أنت أعلم منه بعدم وجودها فيك فهو الكاذب ؛ لأنك لم تكذب ولم تسحر ، وتريد هداية القوم ، وقوله سبحانه : ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ ﴾ قد جاء لأمر من اثنين : إما أن يكون الأمر للحرج ألا يسكن صدر رسول الله ، وإما أن يكون الأمر للرسول طمأنة له وتسكينا ، أى لا تتضايق لأنه أنزل إليك من إله ، وهل ينزل الله عليك قرآناً ليصبح منهج خلقه وصراطاً مستقيماً لهم ، ثم يسلمك إلى سفاهة هؤلاء ؟ لا ، لا يمكن ، فاطمئن تماماً .

﴿ .. فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ② ﴾ [ سورة الأعراف ]

والإنذار لا يكون إلا لمخالف ؛ لأن الإنذار يكون إخباراً بشرٍ ينتظر من تخاطبه . وهو أيضاً تذكير للمؤمنين مثلما قال من قبل فى سورة البقرة : ﴿ هدى للمتقين ﴾ .

وهنا نلاحظ أن الرسالات تقتضى مُرْسِلاً أعلى وهو الله ، ومُرْسَلاً وهو الرسول ، ومُرْسَلاً إليه وهم الأمة ، والمرسَل إليه إما أن يستمع ويهتدى وإما لا ، وجاءت الآية لتقول : ﴿كتاب أنزل ﴾ من الله وهو المرسِل ، و «إليك » لأنك رسول والمرسَل إليهم هم الأمة ، إما أن تنذرهم إن خالفوا وإما أن تذكرهم وتهديهم وتعينهم أو تبشرهم إن كانوا مؤمنين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣ ﴾

ومادام العباد سينقسمون أمام صاحب الرسالة والكتاب الذى جاء به إلى من يقبل الهداية ، ومن يحتاج إلى النذارة لذلك يقول لهم :

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

( من الآية ٣ سورة الأعراف )

وينهاهم عن الشرك وعدم الاستهداء أى طلب الهداية فيقول :

﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

( من الآية ٣ سورة الأعراف )

وحينما يأتى الحق سبحانه فى مثل هذه الآيات ويقول : « وذكرى » . أو « وذكِّر » إنما يلفتنا إلى أن الفطرة المطبوع عليها الإنسان مؤمنة ، والرسالات كلها لم تأت لتنشئ إيماناً جديداً ، وإنما جاءت لتذكر بالعهد الذى أخذ علينا أيام كنا فى عالم الذر ، وقبل أن يكون لنا شهوة اختيار :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢) ﴾ [ سورة الأعراف ]

هذا هو الإقرار فى عالم الذر ، إذن فحين يقول الحق : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ فنحن نلتفت إلى ما نسى الآباء أن يبلغوه للأبناء ؛ فالآباء يعلمون الأبناء متطلبات حياتهم ، وكان من الواجب أن يعلموهم مع ذلك قيم هذه الحياة التى تلقوها ؛ لأن آدم وحواء أول ما نزلا إلى الأرض قال لهما الحق :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ .. (١٢٣) ﴾ [ سورة طه ]

وهكذا نعلم أن هناك «هدى» قد نزل على آدم ، وكان من الواجب على آدم أن يعلمه للأبناء ، ويعلمه الأبناء للأحفاد ، وكان يجب أن يظل هذا «الهدى» منقولاً فى سلسلة الحياة كما وصلت كل أقضية الحياة . ويأتى سبحانه لنا بحيثيات الاتباع .

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ .. (٣) ﴾ [ سورة الأعراف ]

فالمنهج الذى يأتى من الرب الأعلى هو الذى يصلح الحياة ، ولا غضاضة على أحد منكم فى أن يتبع ما أنزل إليه من الإله المربى القادر . الذى ربّى ، وخلق من عدم ، وأمد من عدم ، وهو المتولى للتربية ، ولا يمكن أن يربى أجسادنا بالطعام والشراب والهواء ولا يربى قيمنا بالأخلاق . ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ .

ومادام قد أوضح : اتبعوا ما أنزل إليكم من أعلى ، فلا يصح أن تأتى لمن دونه وتأخذ منه ، مثلما يفعل العالم الآن حين يأخذ قوانينه من دون الله ومن هوى البشر . فهذا يحب الرأسمالية فيفرضها بالسيف ، وآخر يحب الاشتراكية فيفرضها البشر . بالسيف . وكل واحد يفرض بسيفه القوانين التى تلائمه . وكلها دون منهج الله لأنها أفكار بشر ، وتتصادم بأفكار بشر ، والأولى من هذا وذاك أن نأخذ مما لا نستنكف أن نكون عبيداً له .

﴿ .. وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) ﴾ [ سورة الأعراف ]

وتذكر أيها المؤمن أن عزتك فى اتباع منهج الله تتجلّى فى انك لا تخضع لمساو لك ، وهذه ميزة الدين الذى يجعل الإنسان يحيا فى الكون وكرامته محفوظةٌ ، وإن جاءته مسألة فوق أسبابه يقابلها بالمتاح له من الأسباب مؤمناً بأن رب الأسباب سيقدم له العون ، ويقدم الحق له العون فعلاً فيسجد لله شاكراً ، أما الذى ليس له رب فساعة أن تأتى له مسألة فوق أسبابه تضيق حياته عليه وقد ينتحر .

ثم بعد ذلك يبين الحق أن موكب الرسالات سائر من لدن آدم ، وكلما طرأت الغفلة على البشر أرسل الله رسولاً ينبههم . ويوقظ القيم والمناعة الدينية التى توجد فى الذات ، بحيث إذا مالت الذات إلى شىء انحرافى تنبه الذات نفسها وتقول : لماذا فعلت هكذا ؟ . وهذه هى النفس اللوامة . فإذا ما سكتت النفس اللوامة واستمرأ الإنسان الخطأ ، وصارت نفسه أمارة بالسوء طوال الوقت ؛ فالمجتمع الذى حوله يعدله .

وهذه فائدة التواصى بالحق والصبر ، فكل واحد يوصًّى فى ظرف ، ويوصٍّى فى ظرف آخر ؛ فحين تضعف نفسه أمام شهوة يأتى شخص آخر لم يضعف فى هذه الشهوة وينصح الإنسان ، ويتبادل الإنسان النصح مع غيره ، هذا هو معنى التواصى ؛ فالوصية لا تأتى من جماعة تحترف توصية الناس ، بل يكون كل إنسان موصياً فيما هو فيه قوى ، ويوصى فيما هو فيه ضعيف ، فإذا فسد المجتمع ، تتدخل السماء برسول جديد ومعجزة جديدة ، ومنهج جديدة ، لكن الله أمن أمة محمد على هذا الأمر فلم يجىء رسول بعده لأننا خير أمة أخرجت للناس . والخيرية تتجلى فى أننا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، فالتواصى باقٍ إلى أن تقوم الساعة .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١١٠) ﴾

[ سورة آل عمران ]

وهذه خاصية لن تنتهي أبداً ، فإن رأيت منكراً فلا بد من خلية خير تنكره وتقول : لا ، وإذا كان الحق قد جعل محمداً خاتم الرسل ، فذلك شهادة لأمته أنها أصبحت مأمونة ، وأن المناعة الذاتية فيها لا تمتنع ولا تنقطع ، وكذلك لا تمتنع منها أبداً المناعة الاجتماعية فلن يأتي رسول بعد سيد الخلق سيدنا محمد ﷺ .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

وساعة تسمع «كم» فاعرف أن المسألة خرجت عن العد بحيث تستوجب أن تستفهم عنها ، وهذا يدل على أمر كثير فوق العدد ، لكن عندما يكون العدد قليلاً فلا يستفهم عنه ، بل يعرف . والقرية اسم للمكان المعد إعداداً خاصاً لمعيشة الناس فيه . وهل القرى هي التي تهلك أم يهلك من فيها ؟ . أوضح الحق أنها تأتي مرة ويراد منها المكان والمكين : أو يكون المراد بالقرية أهلها ، مثال ذلك قوله الحق في سورة يوسف :

﴿ واسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [ سورة يوسف ]

وبطبيعة الحال لن يسأل إنسان المكان أو المباني ، بل يسأل أهل القرية ، ولم يقل الحق : اسأل أهل القرية ؛ لأن المسئول عنه هو أمر بلغ من الصدق أن المكان يشهد مع المكين ، ومرة أخرى يوضح الحق أنه يدمر القرية بسكانها ومبانيها .

﴿ وكم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا ﴾ .

وأيهما يأتي أولاً : الإهلاك أم يأتي البأس أولاً فيهلك ؟ . الذي يأتي أولاً هو البأس فيهلك ، فمظاهر الكونيات في الأحداث لا يأتي أمرها ارتجالاً ، وإنما أمرها مسبق أزلاً ، وكأن الحق يقول هنا : وكم من قرية حكمنا أن نهلكها فجاءها بأسنا ليتحقق ما قلناه أزلاً ، أي أن تأتي الأحداث على وفق المرادات ؛ حتى ولو كان هناك اختيار للذي يتكلم عنه الحق .

ونعلم أن القرية هى المكان ، وعلى ذلك فليس لها اختيار . وإن كان لمن يتحدث عنه الله حق الاختيار ، فسبحانه يعلم أزلاً أنه سيفعل ما يتحدث عنه سبحانه . ويأتى به فى قرآن يتلى ؛ ليأتى السلوك موافقاً ما أخبر به الله .

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

( سورة الأعراف )

والبأس هو القوة التى لا ترد ولا تقهر ، و « بياتاً » أى بالليل ، « أو هم قائلون » أى فى القيلولة . ولماذا يأتى البأس فى البيات أو فى القيلولة ؟ . ونجد فى خبر عمّن أُهلِكُوا مثل قوم لوط أنه حدث لهم الهلاك بالليل ، وقوم شعيب حدث لهم الهلاك فى القيلولة ، والبيات والقيلولة هما وقت الاسترخاء ووقت الراحة وتفاجئهم الأحداث فلا يستطيعون أن يستعدوا .

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

( سورة الصافات )

أى يأتيهم الدمار فى وقت هم نائمون فيه ، ولا قوة لهم لمواجهة البأس .

﴿ فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾

( من الآية ٤ سورة الأعراف )

وإذا قال سبحانه: ﴿ بياتاً أو هم قائلون ﴾ فيصح أن لهذه القرية امتدادات ، ووقت القيلولة عند جماعة يختلف عن وقت من يسكن امتداد القرية ، فيكون الوقت عندهم ليلاً ، والقيلولة هى الوقت الذى ينامون فيه ظهراً للاسترخاء والراحة . ولكن كيف استقبلوا ساعة مجىء البأس الذى سيهلكهم ؟ .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾

بهذا القول اتضحت المسألة ، ومن قوله ﴿ دعواهم ﴾ نفهم أن المسألة دعاء .
ونحن نقول : فلان ادّعى دعوى على فلان ، فإما أن يقيم بينة ليثبت دعواه ، وإما ألاّ يقيم .

والدعوى تطلق أيضاً على الدعاء :

﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

( من الآية ١٠ سورة يونس )

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾

( سورة الأعراف )

ويشرح ربنا هذا الأمر فى آيات كثيرة ، إنه اعتراف منهم باقترافهم الظلم وقيامهم عليه ، فسبحانه القائل :

﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾

( سورة الملك )

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾

والحق يسأل الرسل بعد أن يجمعهم عن مدى تصديق أقوامهم لهم ، والسؤال إنما يأتى للإقرار ، ومسألة السؤال وردت فى القرآن بأساليب ظاهر أمرها أنها متعارضة ، والحقيقة أن جهاتها منفكة ، وهذا ما جعل خصوم القرآن يدعون أن

القرآن فيه تضارب . فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

( سورة المؤمنون )

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

( سورة المعارج )

ويقول جل وعلا :

﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

( من الآية ٧٨ سورة القصص )

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾

( سورة الرحمن )

ثم يقول هنا :

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾

( سورة الأعراف )

وهذا ما يجعل بعض المستشرقين يندفعون إلى محاولة إظهار أن بالقرآن ـ والعياذ بالله ـ متناقضات . ونقول لكل منهم : أنت تأخذ القرآن بغير ملكة البيان فى اللغة ، ولو أنك نظرت إلى أن القرآن قد استقبله قوم لسانهم عربى ، وهم باقون على كفرهم فلا يمكن أن يقال إنهم كانوا يجاملون ، ولو أنهم وجدوا هذا التناقض ، أما كانوا يستطيعون أن يردوا دعوى محمد فيقولوا : أيكون القرآن معجزا وهو متعارض ؟! لكن الكفار لم يقولوها ، مما يدل على أن ملكاتهم استقبلت القرآن بما يريده قائل القرآن . وفى أعرافنا نورد السؤال مرتين ؛ فمرة يسأل التلميذ أستاذه ليعلم ، ومرة يسأل الأستاذ تلميذه ليقرر .

إذن فالسؤال يأتى لشيئين اثنين : إما أن تسأل لتتعلم ، وهذا هو الاستفهام ، وإما أن تسأل لتقرر حتى تصبح الحجة ألزم للمسئول ، فإذا كان الله سيسأله ، أى يسأله سؤال إقرار ليكون أبلغ فى الاحتجاج عليه ، وبعد ذلك يقولون :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾

( سورة الملك )

وهذا اعتراف وإقرار منهم وهما سيدا الأدلة ؛ لأن كلام المقابل إنما يكون شهادة ، ولكن كلام المقر هو إقرار واعتراف .

إذن إذا ورد إثبات السؤال فإنه سؤال التقرير من الله لتكون شهادة منهم على أنفسهم ، وهذا دليل أبلغ للحجة وقطع للسبل على الإنكار . فإما أن يقر الإنسان ، وإن لم يقر فستقول أبعاضه ؛ لأن الإرادة انفكت عنها ، ولم يعد للإنسان قهر عليها ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾

( من الآية ٢١ سورة فصلت )

والحق هنا يقول : ﴿ فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين ﴾ .

وهو سؤال للإقرار . قال الله عنه :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾

( من الآية ١٠٩ سورة المائدة )

وحين يسأل الحق المرسلين ، وهم قد أدوا رسالتهم فيكون ذلك تقريعاً للمرسَل إليهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ ﴾

أى سيخبرهم بكل ما عملوا فى لحظة الحساب ؛ لأنه سبحانه لم يغب يوماً عن أى من خلقه ؛ لذلك قال : ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ ، ونعلم أن الخلق متكرر الذوات ، متكرر الأحداث ، متكرر المواقع ، هم ذوات كثيرة ، وكل ذات لها حدث ، وكل ذات لها مكان . فإذا قال الحق للجميع : ﴿ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ أى أنه مع الجميع ، ومادام ليس بغائب عن حدث ، ولا عن فاعل حدث ، ولا عن مكان حدث ، وهؤلاء متعددون . إذن هو فى كل زمان وفى كل مكان .

وإن قلت كيف يكون هنا وهناك ؟ أقول : خذ ذلك فى إطار قوله : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ، ومثل هذه المعانى فى الغيبيات لا يمكن أن تحكمها هذه الصور . والأمر سبق أن قلناه حين تحدثنا عن مجيء الله ؛ فله طلاقة القدرة وليس كمثله شيء ، وما كان غائباً فى حدث أو مكان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ ﴾

فى هذه الآيات نجد الحديث عن الوزن للأعمال ، وهذا كله تأكيد للحجة عليهم ؛ فالله لا يظلم أحداً ، وفى وزن الأعمال إبطال للحجة من الذين يخافون النار ، ولم يؤدوا حقوق الله فى الدنيا ، وكل ذلك ليؤكد الحجة ، ويظهر الإنصاف ويقطع العذر ، وهنا قول كريم يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ .. (٤٧) ﴾ [ سورة الأنبياء ]

هذه الموازين هي عين العدل ، وليست مجرد موازين عادلة ، بل تبلغ دقة موازين اليوم الآخر أنها هي عدل في ذاتها . وهنا يقول الحق : ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ . نعم ، الميزان في هذا اليوم حق ودقيق ، ولنذكر أنه قال من قبل :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

( سورة الأنعام )

والميزان الحق هو الذي قامت عليه عدالة الكون كله ، وكل شيء فيه موزون ، وسبحانه هو الذي يضع المقادير على قدر الحكمة والإتقان والدقة التي يؤدي بها كل كائن المطلوبَ منه ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾

( سورة الرحمن )

ولم نر السماء قذفت وألقت علينا أحداثاً غير متوقعة منها ، فالكون له نظام دقيق . والوزن في يوم القيامة هو مطلق الحق ، ففي هذا اليوم تبطل موازين الأرض التي كانت تعاني إما خللاً في الآلة التي يوزن بها ، وإمّا خللاً في الوزن ، وإمّا أن تتأثر بأحداث الكون ، وما يجري فيه من تفاعلات ، أما ميزان السماء فلا دخل لأحد به ولا يتأثر إلا بقيمة ما عمل الإنسان ، وساعة يقول سبحانه : ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ .

فكأن الميزان في الدنيا يمكن أن يحصل فيه خلل ، وكذلك المِلْك أيضاً ؛ لأنه سبحانه أعطى أسباباً للملك المناسب لكل إنسان ، فهذا يملك كذا ، والثاني يملك كذا ، والثالث يملك كذا ، وبعد ذلك يتصرف كل إنسان في هذا الملك إن عدلاً ، وإن ظلماً على ضوء الاختيار . لكن حين يأتي اليوم الآخر فلا ملك لأحد :

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

( من الآية ١٦ سورة غافر )

فالأمر حينئذ يكون كله لله وحده ، فإن كان الملك في الدنيا قد استخلف فيه الحق

عباده ، فهذه الولاية تنتهى فى اليوم الآخر : ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

وسبحانه هو القائل :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾

( سورة القارعة )

إذن فالميزان يثقل بالحسنات ، ويخف بالسيئات . ونلحظ أن القسمة العقلية لإيجاد ميزان ووازن وموزون تقتضى ثلاثة أشياء : أن تثقل كفة ، وتخف الأخرى ، أو أن يتساويا ، ولكن هذه الحال غير موجودة هنا . ويتحدث الحق عن الذين تخف موازينهم فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

والسورة السابقة جاء فيها بالحالتين ، وفى هذه السورة أيضاً جاء بالحالتين ، ومن العجيب أن هذا الكلام عن الثقل والخفة وعدم وجود الحالة الثالثة وهى حالة تساوى الكفتين يأتى فى أول سورة الأعراف ، ولكنه ـ سبحانه يقول بعد ذلك فى سورة الأعراف : ﴿ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ﴾ .

وهؤلاء هم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وقد جعل لهم ربنا مكاناً يشبه عرف الفرس ، وعرف الفرس يعتبر أعلى شىء فيه ، فحينا يأتى شعر الفرس يميناً ، وحينا يأتى شعر الفرس يساراً ، وليس هناك جهة أولى بالشعر من الأخرى . وقد أعد الحق لأصحاب الأعراف مكاناً يسمعون فيه أصحاب النار وهم ينادون أصحاب الجنة ، وأصحاب الجنة وهم ينادون أصحاب النار ، وأصحاب الأعراف